

## اختلاف تقدير الأدباء للشعر

## باختلاف أهوائهم وأذواقهم

بفلم محمد احمد برانق

المدرس بـ مدرسة الناصرية

الرسم والموسيقى وصور المعاني الجميلة كلها وسائل لتغذية العواطف، وإحياء الشعور؛ وميزانها القسطاس المستقيم الذى توزن به هو الذوق السليم؛ فكل من الشكل المتناسق الجميل، والنغمة العذبة، والمعنى الرائع البديع، يبعث فى النفس الحية شعوراً بالجمال، وإن اختلف ذلك الشعور باختلاف الجنس، وتباين البيئة، ففى الرسم والنحت طريقة إدراك الجمال النظر، ينظر الشخص الشكل المتناسق، أو التمثال الجميل، فيأخذ الإعجاب من نفسه مأخذاً يتناسب مع درجة الجمال أولاً، ومع مقدار حظ المعجب من الذوق السليم والطبع الرقيق ثانياً.

والنغم طريق إدراك جماله السمع، فما هو إلا أن يعزف الإنسان على آلة موسيقية، أو يغنى، أو يسمع غيره يعزف أو يغنى، حتى يطرب لذلك العزف أو هذا الغناء، أو لهما معاً، إذا صادف هوى فى نفسه، وينقبض إذا نفر منه ذوقه.

أما المعاني فهمى وإن كانت مختلفة فى الحسن متفاوتة فى مراتب الجمال، فإنها تزيد شيئاً آخر، هو الثوب تكسيه من اللفظ، فإن الكاتب أو الشاعر يحوك لها من اللغة التى ينطقها ثياباً من الألفاظ. ثم يلبسها تلك الثياب، ويخرجها للناس، فيكون لللفظ شأن أى شأن فى تجميل صورها، فالمعنى الجميل الرائع إذا أخذه الكاتب الأديب، أو الشاعر البليغ، وألبسه من الألفاظ ثوباً أنيقاً رقيقاً ههنا، تنظره العين، فينطقه اللسان، فتسمعه الأذن، فيصل إلى النفس، ويؤثر فيها تأثير الحميا فى العقول، وذلك الحد الأعلى الذى ليس وراءه لكاتب أو شاعر غاية.

وقد يأخذ هذا المعنى الجميل الرائع شاد فى الأدب، أو دعى، أو فاسد الذوق

فيستكره له الألفاظ استكراها ، ويحوك له ثوبا سخيلا غير متسق ولا متناسق ،  
ثم يخرج له للناس فلا يرون منه إلا صورة بشعة تفرز منها النفس الطيبة ، وينفر منها  
الذوق السليم ؛ ويكون مثله مثل القروية الحسنة تلبس ثوب الكتان الفضفاض ،  
تغدو فيه وتروح بشعر أشعث ، ووجه أغبر ، وقدمين حافيتين ملوثتين بالوحل ،  
فتلك قد وهبها الله جمالا استر وراء تلك القبائح ، وذلك كالذي قيل من أن كلام  
ابن كريمة والحسن بن هانيء وصف بمدوحه بالجمال ، وادعى أن قفاه بلغ من  
الحسن غاية فاقت حسن الوجوه ، فكيف بوجهه ؛ فقال ابن كريمة :

قفاه وجه والذي وجهه مثل قفاه يبلغ الشمس  
وقال الحسن بن هانيء :

بأبي أنت من غزال غرير برحسن الوجوه حسن قفاكا  
فالاول متكلف ، بعيد المأق لتعقد مخارج ألفاظه مجتمعة ، والثاني قريب المأق ،  
حسن النسيج ، حلو اللفظ ، والمعنى في البيتين واحد .  
ثم تلك خمسة أبيات في معنى واحد الخمسة من قول المتقدمين ، أما المعنى فهو  
أن كلامهم يريد أن يصف الممدوح بالجود والكرم ، حتى إنه كان يعطى سائله  
قبل أن يسأله ، وهذه هي الخمسة الأبيات .  
قال أبو العتاهية :

وإنا إذا ما تركنا السؤال منه فلم نبغه يبتدينا  
وقال مسلم بن الوليد :

أخ لي يعطيني إذا ما سأله ولولم أعرض بالسؤال ابتدأنا  
وقال أبو تمام :

ورأيتني فسألت نفسك سبها لي ثم جدت وما انتظرت سؤالي  
وقال منصور النمرى :

رأيت المصطفى هارون يعطى عطاء ليس ينتظر السؤال  
وقال سلم بن عمرو الخاسر القرشي :

أعطاك قبل سؤاله فكفأك مكروه السؤال

اقرأ هذه الآيات مرة واحدة ، وانظر فيها نظرة عجي ، ثم ارجع إلى نفسك وتبصر ؛ أيها أعلق بذهنك وأدخل على نفسك ؛ لا يتردد أحد في أنه البيت الأخير ، بيت سلم الخاسر ، لأنه أعذب الخمسة الآيات لفظاً ، وأحلاها ديتاجة ، وأحسنها سبكاً ، وأجودها حبكاً ، وأكثرها وضوحاً ، وأقلها كلاماً ؛ لذلك كان أسرعها إلى القلب ، وأشدّها علوقاً بالذهن .

وقد يكون المعنى رديئاً مردولاً فيتناوله الشاعر ، ويتخير له من جيد الالفاظ ستاراً يتوارى وراءه قبح المعنى ، فيعمى على الشادين والأدعياء ، ولكن ذلك لا يخفى على الفطن اللبيب الخبير بفنون الأدب ، وضروب الشعر .

وأسوأ السيئات في الأدب أن يقبح المعنى ، ويسمج الخيال ، ويشنع اللفظ . وهناك معان عامة يستطيع أن يشترك فيها الأدباء على اختلاف نحلهم ، وتباين مللهم ، إلا أنهم يتفاوتون في تصويرها بتفاوت مادة التشبيهات التي يستمدونها من البيئات التي يعيشون فيها ، لأن الانسان يولد طفلاً ، وقوة الخيال عنده كامنة ، تظهر هذه القوة وتنمو كلها تقدمت به السن ، ولكن المادة التي تخصبها وتزيدها نماء ، لا يمكن أن تستمد إلا من صور الحياة المختلفة التي يتقلب في أحضانها ؛ فالذي يقع عليه نظر العربي البدوي الذي ينتجع الكلاً ، ويرتاد مساقط الغيث ، ويسكن الخيام ، غير العربي الحضري الذي يبتنى البيوت ، ويفلح الأرض ، ويتقلب في أحضان النعيم ؛ والعربي السيد في قومه ، الذي يملك زمام أمورهم ، ويتصرف في شئونهم ، يستمد من عزه وسؤدده وشرف نفسه ونسبه ؛ والذي ينشأ في أسرة مغمورة ، ألح عليها العسر ، وطال بها الفقر ، يغلب عليه أن تتداني نفسه ، ويبدل ماء وجهه مادحاً مستجدياً محاولاً أن يستدر أكف الموسرين . ويتملقهم عسى أن يحرك عاطفة الرحمة في قلوبهم ، فيذلوا له ما هو في حاجة اليه . ومن هذه المعاني العامة أن الذي يهيم بحبيبه لا يفتأ يذكره في كل لحظة من لحظاته ، في نجواه وعلايته ، في نطقه وصمته ، وقد يبرح به الحب حتى تراه مشدها مولها ، تذهب به الأفكار كل مذهب ، فيصيح وقد براه الشوق ، وأهزله طول التفكير ، فالتحول والهزال نتيجة التفكير في الحبيب ، وهذا المعنى صالح لكل

زمان ومكان، ولكنهم يختلفون باختلاف البيئة والزمان في تصوير هذا الهزال فبعضهم يرى أن ما بقى من جسمه لو علق بعود خلال لحمة العود ولم يتأود، وبعضهم يرى أنه «لولا تقلب طرفه دفنوه»، وقد يببالغون في جعلونه «صدى أينما تذهب به الريح يذهب»، وبعضهم يقول:

لم يبق من جثمانه إلا حشاشة مبتثس  
قد رق حتى ما يرى بل ذاب حتى ما يحس

من ذلك ترى أن المعنى العام حق شائع، ليس لأديب دون غيره، والفضل لمن له القدرة على حسن تصويره، فيلحقه بجميل تصويره بالمعنى الطريف. وكل ما ذكرنا هو طريقة الحكم الطبيعي، والتقدير المبني على قوانين الصناعة، ولكن ثمة طائفة من الذين يبحثون في الأدب، وآثار البلاء والشعراء، تختلف وجهة نظرهم اختلافاً كبيراً، لا من طريق حسن تصوير المعنى، ولا رقة اللفظ، ولكن من طريق تباين الميول النفسية، والعصية القومية أو المذهبية ومن اختلاف التريّة، فالذي يميل إلى معاقرة الحمر، ومغازلة الحسان، وكثرة الدعابة يتغنى دائماً بشعر عمر بن أبي ربيعة، والحسين بن الضحاك، وأبي نواس، ومن لف لفهم، والذي يركن إلى الحكمة والفلسفة، والمقدمات المنطقية التي تستنبط منها النتائج يغوص وراء المعاني التي يحتويها شعر أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري ومن تحا نحوهما، ومن ينشأ تنشئة حربية يميل كل الميل إلى المعاني التي تستفز النفس، وتلهب الشعور، وتوقد الحمية، وتنسى المحارب نفسه فيبذلها رخيصة في سبيل قهر أعدائه والانتصار على خصومه.

ومن سوء حظ الأدب والأدباء أن العصية والهوى لازما الأدب ونقده منذ كان وإلى الآن؛ ألا ترى أن المتقدمين كانوا يختلفون بسبب تباين الميول والآهواء في أمدح بيت، وأهجي بيت، وأغزل بيت، وغير ذلك، بل كان الأئمة أنفسهم يختلفون في تقدير الشاعر الواحد، فبعضهم يتخذ له مقعداً في السماء، والبعض الآخر يغمره في المساء. وقد حكى ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد أن

الأصمعي كان يصف شعر عمر بن أبي ربيعة بأنه الفمستق المقشر لا يشبع منه (وقد نسب ذلك صاحب الأغاني لحناد الراوية) في الوقت الذي كان فيه جرير يستبرده ويقول: شعر حجازي لو اتخذ في نور لوجد البرد فيه؛ فما أعظم الفرق بين هذين الرأيين في شاعر واحد لا فاصين من أئمة الأدب

وكثيراً ما ترى الشاعر الواحد يمدح فلانا اليوم، ولأمر ما يوسعه هجواً وزما غداً، فكم مدح بشار بن برد وأصل بن عطاء، وأعجب بيلاغته فقال فيه أيام كانا على اتفاق في الرأي واتحاد في المذهب:

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا      وحبوا خطبا ناهيك من خطب  
فقام مرتجلاً تغلى بداهته      كمرجل القين لما حف باللهب  
وجانب الرام لم يشعر به أحد      قبل التصفح والإغراق في الطلب  
فلما اختلفا وتباينا قلب بشار لو اصل ظهر المجن . وأخذ يعيب عليه لثغته ،  
ولقبه بالغزال ، وقال فيه :

مالي أشايح غزالا له عنق      كنتنق الدو إن ولي وإن مثلاً  
وكذلك الشأن فيما جرى بين أبي الطيب المتنبي وكافور الإخشيدى ، فإن من يتبع شعر أبي الطيب يحده كان يكيل المدح لكافور كيلاً ، ويكنيه أبا المسك لسواده ، ويعترف به حاكماً عادلاً ، وسياسياً محنكاً ، وهو الذي يقول فيه :  
وأخلاق كافور إذا شئت مدحه      وإن لم أشأ ، تملئ على فأكتب  
فلما لم ينل منه ما كان يريده ثمنا لذلك المدح الطويل في ذلك الشعر السائر ، بعد أن عرض حاجته في مثل قوله :

فارم بي ما أردت منى ، فاني      أسد القلب ، آدمى الرواء  
وفؤادى من الملوك ، وإن كا      ن لسانى يرى من الشعراء  
- تجهم له ، ولبس فروة الأسد ، وأخذ ينهش في عرضه ، ويسمه بميسم العار ،  
ويكنيه أبا البيضاء ويقول فيه :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه      إن العبيد لا نجس مثاكيد

ويقول :

ولا تُرَجَّ الحَيرُ عند امرئٍ . . . مرت يد النخاس في رأسه

ooo

وقد تتدخل العصبية في الحكم على الشاعر في مجموعه : معانيه وألفاظه وأخيلته ، فيخالف الحاكم جمهرة الباحثين ، لأن الشاعر حجازي والحاكم حجازي مثلاً ، أو لأن الشاعر قحطاني والحاكم عدناني مثلاً ، انظر إلى كثير وجميل ، فإن أهل العلم بالشعر والأدب والرواية على أن كثيراً وإن كان قد تلبذ لجليل وأخذ عنه ، واستقى من معانيه ، أشعر منه . وقد ذكره ابن سلام في كتابه طبقات الشعراء في الطبقة الثانية من الشعراء الاسلاميين ، وجعله في صف البعيث والقطامي ، في حين أنه جعل جميلاً في الطبقة السادسة الاسلامية مع الأحوص وعبد الله بن قيس الرقيات ونصيب ، ولما كان كثير حجازياً فإن أهل الحجاز يقدمونه حتى على جرير والفرزدق والأخطل ، وكانت ربيعة تتعصب للأخطل وتفرط في مدحه ، وتقدمه على الفرزدق وجرير ، لأنه ربيعي ، مع أن الجمهور على أنه أقل شأنًا منهما ؛ قال أبو الفرج الأصفهاني : ( فأما قدماء أهل العلم والرواية فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما في سائرته ) وقد لا تؤثر هذه العصبية في حسن الصداقة بين شاعر وشاعر ، إذا تكاملت أخلاقهما ، فقد روى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن الكميث بن زيد الأسدي ، والطرماح بن حكيم الطائي ، لم ير الناس أعجب حالا منهما فقد ( كان الكميث عدنانياً عصياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصياً ، وكان الكميث شيعياً من الغالية ، وكان الطرماح خارجياً من الصفرية ، وكان الكميث يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه ) .

وإنما المألوف في عامة الطبائع البشرية التي لم تصل إلى درجة التهذيب الكامل أن يكون للهوى والحب والصداقة أثر في الحكم ، فكثيراً ما يمتدح

الشاعر أو الباحث في الشعر والرواية فلانا الشاعر وإن أساء لأنه صديقه، ولأنه يعتقد أن شروط الصداقة، وأصول المحافظة عليها، ترتفع فوق كل اعتبار، وتمنعه من إظهار سيئات الصديق وإن كانت ظاهرة واضحة، وليس ذلك فقط، بل هو يحاول أن يلبس تلك السيئات ثوبا يخفيها على الجمهور، ويظهرها للناس حسنا، ولكنه ثوب نمام يشف عما تحته؛ ومن الناس من تغلب عليهم التقية وبجاملة الشعراء، فيكون من صفاتهم أنهم لا يحقرن شاعرا بين إخوانه، ولا يأخذون أحدا بالنقد؛ قال زهير بن أبي سلمى:

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب، فما يُسلم به فهو قائله  
عبأت له حلما، وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهوباد مقاتله

وذلك إما لأنهم يعتقدون أنهم في القمة، فرفعهم من شأن غيرهم لا يضيرهم لأنهم لا يتألمون مرتبتهم، وإما أن يفعلوا ذلك حذرا من أن يقول أحد المغمورين بيتا فيهم، فيسير هذا البيت بين الناس، ومن هؤلاء الأفاذا الذين كانوا يصانعون غيرهم ممن هم أقل منهم شأنًا بالبحر الذي كان لا يذكر بحضرته شاعر محسن أو غير محسن إلا قرظه ومدحه وذكر أحسن ما فيه، ومنهم دعبل الخراعى، فإنه كان يعرض للبلوك والأمراء ويهجوهم؛ ولكنه لا يتعرض لشعرائهم إلا ضرورة، وقد ذكر الآمدي في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري عن دعبل قال: (وقد حذر - يعنى دعبل - في أول كتابه الذي ألفه في الشعراء، من التعرض لشاعر ولو كان من أدون الناس صنعة في الشعر، وقال: رب بيت جرى على لسان مفخم قيل فيه: رب رمية من غير رام، فسارت به الركبان)

وعكس ذلك حاصل، فقد يعتد الأديب الناقد بشعر طبقة من الشعراء دون غيرها، أو يكره الشاعر أو الباحث في الشعر فلانا الشاعر لأمر ما، أو يستقل روحه في مجموعته، أو يحسده على نبوغه، فيجعل ذلك يطعن عليه في كل قول يقوله وإن أحسن وأجاد، فإن ابن الأعرابي كان يسمع الشعر فيستحسنه ويستجده ويأمر بكتبه، وإذا علم بعد ذلك أن قائله أبو تمام، حكم بتخريفه، وأمر بشطبه، وإن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنشد الأصمعي يوما:

هل إلى نظرة إليك سليل فيروتي الصدى ويشقى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال الأصمعي : لمن ينشدني ؟ قال ! لبعض الأعراب ، فقال ! والله هذا هو الديباج الخسرواني ، فقال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فرد عليه الأصمعي لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ فانظر إلى الأصمعي وهو من هو في فنون الشعر رواية ودراية يستجيد البيتين أولا ، لأنه لا يعرف قائلهما ، ويراهما ديباجا خسروانيا ، ثم يرتد في الوقت نفسه ، وينقض حكمه ، ويقول : إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما عند ما عرف قائلهما ؛ ومهما اتحل المنتصرون له الأعذار فإن هذا ما كان ليصح أن يتورط فيه عالم كبير مثله .

ولم أذهب بك بعيدا ، وأرجعك إلى الوراء قرونا ؛ فعندنا الآن أمثلة واضحة تؤيد هذا الرأي ؛ لعلك قرأت الروايات التمثيلية المسرحية التي أظهرها في ثوب الشعر أمير الشعر في عصرنا الحاضر غير منازع ، وفتح بها في عالم الأدب العربي فتحا جديدا ، ولعلك تذكر منها رواية قبيز ، فإنها بمجرد ظهورها ، تناولها أحد الحاقدين عليه ، الحاسدين له ، وأخذ يتنقصها في كل ناحية من نواحيها ، في موضوعها وموضعها ووقائعها ومعانيها وديباجتها ، وليس ذلك فحسب ، بل ينظم أبياتا من عنده في المعنى الذي قاله المرحوم شوقي ويقول : لو قال كذا لكان أجاد قولاً ، ولو وضع هذه الآيات مكان تلك لكان أحسن صنعا ؛ وفي كل هذه الرواية الطويلة لم يذكر لشوقي أية حسنة من حسنات الشاعر المجيد المكثّر الذي وضعه غير المخرضين في مصر وفي غير مصر فوق القمة .

وغير قليل من الباحثين ، وسواء في ذلك السابقون واللاحقون ، يتورطون عند ما يبحثون في هذه المعاني ، وفيما يمكن أن يقال عنه : تاريخ نشأتها ، فيحكمون بأن فلانا هو الذي اخترع هذا المعنى ، وهو أول من قاله ، ثم جاء من بعده فلان فسرقة منه .

لم لا يكون الذي سموه مخترعا ، ونسبوا له فضل الاختراع ، سارقا من غيره من الذين تقدموه أو عاصروه ، ولكنهم لم يصل علمهم إلى المسروق منه ، لأن

معناه قد باد فيما باد من كلام المتقدمين ولم يقف عليه غيره ، أولاً لأنه قاله رجل مغموور من السوق ، وسمعه هذا الفحل فأخذه منه ، ونسبه لنفسه ، فشاع مع كلامه ، ونسبه الناس له لا لغيره . والذي حكم عليه بأنه سارق ، لم لا يكون هو قد اخترع المعنى اختراعاً ، وأبتدعه ابتداءً من غير أن يعلم أن غيره قد سبقه إليه ، وأن معاصراً له يعيش في بلد غير بلده ، اهتدى إلى هذا المعنى كما اهتدى هو إليه ؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يرجح أن ديك الجن عبد السلام بن رغبان أخذ قوله في وصف الحرة :  
تظل بأيدينا تغمقع روحها - وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها  
من قول أبي تمام الطائي :

إذا اليد نالتها بوتر توفرت على ضغنها ثم استقادت من الرجل  
أو أن أبا تمام أخذه من ديك الجن ، لا يستطيع أحد ذلك لأنها كانتا في عصر واحد ، فلا يمكن أن نقطع بأن أحدهما أخذ من الآخر ، كما لا يمكن أن نقطع بأن كلا منهما قد اخترع المعنى اختراعاً ، فاتفق فيه خاطراهما ، أو أن أحدهما سرق من مجهول سابق والآخر مبتدع . وكذلك الشأن في مريم بنت طارق وجرير ، فقد قال جرير يرثى الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر  
وقالت مريم ترثى أخاها في أبيات أنشدها ابن الأنباري في أماليه :

كنا كأنجم ليل بينها قمر يحلو الدجى فهوى من بينها القمر

فإنه يمكن مناقشة هذا المعنى في هذين البيتين مناقشة سابقة .

ولقد حدثني أحد أشياخي الشعراء - رحمه الله - يوماً أنه قال بيتاً من الشعر ، وصدر به إحدى قصائده ، واشتمل هذا البيت على معنى أعجب هو به إعجاباً كثيراً ، حتى كان يتغنى به في خلواته ومضى على قرضه هذا البيت الذي ظن أنه لم يسبق إلى معناه بضع سنين ، ثم وقع على قصيدة لشاعر قديم لا يحضرني اسمه ، فاذا به يصدر قصيدة له ببيت معناه هو بعينه معنى بيته ، ولفظه يكاد يكون

لفظه ، فهمت ؛ فهذان شاعران بين زمنيهما قرون طويلة ، ومع ذلك اتفق خاطراهما ليس في ذلك المعنى فحسب ، بل وفي كثير من الديباجة واللفظ .  
ولقائل أن يقول : إن الشاعر لا يكون شاعرا إلا إذا قرأ كثيرا من شعر المتقدمين ، وحفظ ما استطاعت حافظته أن تقتضيه من دررهم ، ثم هو مع الزمن ينسى ما حفظ ، ولا يبقى منه في ذهنه إلا صور عامة هي المعين الذي يستطيع أن يستمد منه حسب قدرة قريحته على إمداده . لذلك قد يحجى في تضاعيف كلامه معان وتراكيب هي لغيره من غير أن يفطن إلى ذلك ، ويظن أنه ليس مسبوقا إليها ، وقد تورط في ذلك المرحوم محمود سامي البارودي باشا ، فكثيرا ما ضمن قصائده أياتا أو أنصاف أيات هي لغيره ، من غير أن يفطن إلى هذا التضمين الكثيرة محفولة .

\*\*\*

وقد تقع على المعنى الواحد لشاعرين ، أحدهما مخترع سابق ، والثاني سارق لاحق ، وضعه كل منهما في بيت من الشعر ، ولكن بيت السارق اللاحق يكون أكثر شيوعا بين الناس من بيت المخترع السابق ، لأنه أشرح وأوضح ؛ انظر إلى قول أبي تمام الطائي ، والكميت بن ثعلبة ، في أن السيف هو الذي يعول عليه ، لا أقوال الكهان ، وتنبؤات المتنبيين ، قال أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقال الكميت :

ولا تكثروا فيها اللجاج فإنه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا والكميت أسبق زمنا من أبي تمام ، فهو أسبق إلى اختراع المعنى ، ومع ذلك فإن بيت أبي تمام شاعر حتى على ألسنة كثير من العامة ، لأنه كما قلنا أشرح وأوضح بخلاف بيت الكميت فإنه لم يعرفه إلا الخاصة .

وقد يسير البيت لكونه أحلى لفظا ، وأحسن ديباجة ، قال عمرو بن العلاء لمحمد بن سلام : أي البيتين عندك أجود ؟ ، قول جرير :

أستم خير من ركب المطايا وأندي العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدرُوا  
فقال : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن .  
مما تقدم نعلم أنه لا يصح أن نجزم بأن هذا المعنى مسروق ، وأن المخترع له  
فلان ، بل نحكم بالغلبة والترجيح ، فنقول : يغلب ، أو ترجح أن هذا المعنى الذى قاله  
فلان ، مأخوذ من قول فلان ، والقطع لا يأتي إلا إذا اعترف الشاعر نفسه بأنه  
أخذ من غيره ، كما حدث بين أبى تمام وابن أبى دواد ، فإنه لما سمع قول أبى تمام :  
وما سافرت فى الآفاق إلا ومن جدواك راحلتى وزادى  
مقيم الظن عندك والأمانى وإن قلقت ركائى فى البلاد  
سأله عن هذا المعنى حين أنشده القصيدة فقال : أهو مما اخترعته فأجاب : أخذته  
من قول ابن هانى :

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعى  
فاعترف أبو تمام نفسه أنه أخذ المعنى من ابن هانى .

ومع ذلك فإن وصف الشاعر بأنه سرق فيه شئ كثير من التساهل فى إطلاق  
هذا اللفظ ، لأن الشاعر المكثار أيا كان مقامه بين الشعراء ، ومهما كان قادرا  
على اختراع المعانى ، فإنه لا يستطيع أن يأتي بإحدى مطولاته وأكثر معانيها  
— فضلا عن كل المعانى — مخترع ، ولكن الباحث يكتفى ببضعة معان جديدة  
يأتى بها الشاعر المقلق فى قصيدته الطويلة التى قد تتضمن عشرات المعانى ، وكلما  
كثرت المعانى المخترعة وجادت كانت القصيدة أعلى مقاما ، إذ لا يمكن أن تجد  
شاعرا وكل معانيه مخترعة ، بل بعضها مخترع ، وبعضها مأخوذ من غيره .  
ويزيد مكان القصيدة سموا ، صحة اللفظ ، وإشباع القول ، وجودة التشبيه ،  
وإصابة الحقيقة .

محمد أحمد برانق